

الفصل الرابع

هرقليطس

Heracleitus

وُلد في أفسوس من أعمال آسيا الصغرى حوالي سنة ٥٣٥ ق.م، ومات سنة ٤٧٥ ق.م، بعد أن عُمَرَ نحو ستين عامًا، كان معاصرًا في بعضها لبارمنيدس، أي إنه ساير المدرسة الإيلية وهي في أعلى ذراها.

وكان هرقليطس سليل أسرة أرستقراطية نبيلة، لها المنزلة الأولى بين أهل المدينة، وقد شاء له الحظ أن يدرج صاعدًا في وظائف أفسوس حتى حل أسمى مناصبها فكان حاكمها المسيطر، ولعل أبرز ما في خلقه شعوره بالعظمة والكبرياء، وقد بالغ في ذلك إلى حد الغلو والإسراف، كأنما هو من طينة غير طينة البشر! فلم تكن عامة الشعب خليفة عنده بنظرة عطف، ولا هي جديرة بأن ينزل إلى حضيضها من عليائه ليشاطرها أسباب العيش، وكيف ترجو منه أن يضطرب مع الناس في حياتهم وهم في رأيه قطعان من الغنم حقت عليهم الضعة والمهانة؟! بل جنح به الكبرياء إلى احتقار أعلام الفكر من أسلافه؛ فيكزنوفنس وفيثاغورس نكرتان جديرتان بالإهمال، و«هومر» قدم غبي يجب أن تلهب ظهره عذبات السياط، و«هزيود» لا يرتفع كثيرًا عن غمار السوق، فهو واحد منهم «لا يفرق بين الليل والنهار»! فإذا كان يُنزل قادة الفكر تلك المنزلة، فأين يقع الشعب من نفسه؟ هم «أنعام تُؤثر الكلاء على الذهب» وهم «كلاب تنبح كل من لا تعرفه»، وبدهي أن تلك النزعة الأرستقراطية لم تكن لتطمئن إلى الديمقراطية السائدة عندئذ في مدينة أفسوس، فهاجمها هجومًا عنيفًا، ولم يدع في جعبته سهمًا للنقد إلا طعنها به.

كتب هرقليطس رسالة نثرية ضمنها آراءه الفلسفية كانت معروفة في عهد سقراط، ولكن لم يبقَ لنا منها إلا أجزاء متناثرة بلغت من غموض الأسلوب وتعقيدِه حدًّا تكاد تستعصي معه على الأفهام، حتى أصبح هرقليطس يُلقَّب بالغامض تارة وبالمظلم تارة أخرى، وقد قال «سقراط» إن ما فهمه من كلامه قيم عظيم، وما لم يفهمه يجب أن يُقاس على ما فهم، ويميل بعض مؤرخي الفلسفة إلى القول بأنه إنما تعمد ذلك الغموض تعمدًا لتغلُّق فلسفته على عامة الناس الذين لم يقصد إليهم فيما كتب، إنما سطر ما سطر ليخاطب العقول المستنيرة الممتازة وحدها، وحتى هؤلاء لم يكن يعنيه في كثير أو قليل كيف تقع رسالته من أفهامهم، وما عليه ألا يفهموا، وهو من اتخذ لنفسه السماء موضعًا؟ إنما الخير لهم إن ساغتها نفوسهم، والخسارة عليهم إن استعصى عليهم إدراكها، ولكننا نرجح أنه لم يتعمد ذلك الغموض ولم يقصد إليه، كما أنه في الوقت نفسه لم يُعَنِّ بالتليل والشرح، فصب أفكاره في صفحات قليلة يحتاج فهمها إلى صبر طويل، ومجهود شاق عنيف.

لقد عرف أن المدرسة الإيلية التي كنت تقوم حينئذ في جنوبي إيطاليا كانت تنادي بأن حقيقة الكون هي الوجود نفسه، فليست ظواهر الكون حقيقة في ذاتها، ولكن وجودها هو الحقيقة، أي إن جوهر الكون هو الكينونة الدائمة التي لا يجوز عليها أن تتحول إلى غير ما هي عليه، فهي شيء واحد مطلق لا تتعلق به الصفات، اللهم إلا واحدة: هي صفة الوجود وكفى، أما ما تدركه الحواس من جزئيات تتغير وتتحول وتنشأ وتفنئ فوهم لا يمت إلى الحقيقة بسبب من الأسباب، تلك كانت فلسفة الإيليين، أو إن شئت تخصيصًا فقل هو ما يظهر من فلسفة بارمنيدس، فعارضه هرقليطس ووقف من رأيه موقف النقيض، فليست الكينونة ثابتة ولا خالدة، وليس الكون دائمًا على صورة واحدة، فهو متغير متحول دائمًا، وهو صائر أبدًا إلى غير ما هو عليه، فكل لحظة تباين اللحظة التي سبقتها كما تخالف التي تليها، وهذه الاستحالة أو الصيرورة من صورة إلى صورة هي حقيقة الكون، فلا تفتأ الأشياء تتقلب من حال إلى حال إلى آخر الأبد، دون أن تدوم أو تثبت على حال بعينها لحظة واحدة.

ولا يقف هرقليطس عند إنكار الدوام المطلق فحسب، بل إنه كذلك لينكر الدوام النسبي للأشياء، فقد يُخَيَّلُ إلينا أن لكل شيء أجلًا محتمومًا، وأن آجال الأشياء تختلف طولًا وقصرًا فكلها تنشأ وتظل باقية بين الكائنات حينًا من الدهر، ثم تزول وتفنئ، فلا فرق بين هذه الحشرة وذلك الجبل من حيث البقاء، إلا أن تلك الحشرة لن تدوم أكثر من سويعات، وأن هذا الجبل سيخلد قرونًا وقرونًا، نقول قد يُخَيَّلُ إلينا أن للأشياء أمادًا

تظل فيها حافظة لصورة ثابتة لا تتغير، فنعتقد أن الحشرة ستدوم على حال بعينها بضع ساعات، وأن الجبل سيدوم على حال بعينها قرونًا، ولكن هرقليطس يرفض حتى هذا البقاء المؤقت، وعنده أن لا شيء يدوم على حال معينة لحظتين متتابعتين، وأن هذا البقاء الذي ننسبه للأشياء مع اختلاف في الطول والقصر باختلاف الأشياء نفسها خداع من الحواس لا يتفق مع الواقع، كما يُحَيَّلُ إلينا، مثلًا: إن الموجة تظل هي بعينها تحبو على سطح الماء حتى ترتطم على صخرة الشاطئ، مع أن الحقيقة المعروفة أن الموجة وإن احتفظت بصورتها الخارجية فإن ماءها الذي تتكون منه يتغير في كل لحظة زمنية، وهكذا الأمر في كل شيء، قد تدوم صورته الخارجية حينًا من الزمن يطول أو يقصر، فينخدع الإنسان بهذا الثبات الصوري، ويظن أن التغير لا يطرأ على جوهره كذلك، والواقع أن مادته في تجدد وتغير لا ينقطعان، فهذا الطود الراسخ، وإن حُيِّلَ إليك أنه ثابت على الزمان، إنما تتغير مادته في كل لحظة كما يتغير ماء الموجة، فتتدفق فيه مادة، وتخرج منه مادة، من دقيقة إلى دقيقة، وليس جبل اليوم هو جبل الأمس، ولن يكون جبل الغد، بل إن هرقليطس لا يقف عند هذا الحد من استمرار التغير، فهو لا يكفيه أن يطرأ التغير على الأشياء في فترات متعاقبة، كأن تقول مثلًا: هذه الزهرة محتفظة بصورتها ومادتها الآن، وستتغير بعد لحظة، كلا بل يزعم أنه لا تمضي على الشيء لحظة زمنية واحدة مهما بلغت من القصر إلا ويطرأ عليه تغير ما، ومعنى ذلك أن الشيء المعين يكون موجودًا ومتغيرًا في نفس الوقت، وبعبارة أخرى يكون موجودًا وغير موجود في آن واحد، فهو موجود بصورته غير أن مادته متغيرة أبدًا لا تستقر على حال، وهذا الاتحاد الآني (الزمني) بين الوجود واللاوجود هو معنى الصيرورة التي يذهب هرقليطس إلى أنها جوهر الكون وحقيقته.

ولعلك تلاحظ اتساع مسافة الخلف بين وجهتي النظر عند هرقليطس من ناحية والمدرسة الإيلية من ناحية أخرى، فهذه كما علمت تقسم الكون إلى شطرين: أحدهما هو الحقيقة الخالدة، وثانيهما وهم باطل، أما الأول فهو مجرد الوجود، وأما الثاني فهو الأشياء التي ندركها بالحواس، ولما كانت هذه الأشياء باطلة فقد اعتبرت المدرسة الإيلية غير موجودة أصلًا، وإن فكل ما ليس بوجود لا وجود له على الإطلاق، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن المدرسة الإيلية قد شطرت الكون إلى شقين: الوجود واللاوجود وأثبتت الأول واعترفت به، وأنكرت الثاني ورفضته، أما هرقليطس فيزعم أن كلا الشطرين الوجود واللاوجود حقيقة؛ لأن كل شيء موجود وغير موجود في آن واحد، فهذا الكتاب الذي بيدك موجود تلمسه وتراه إلا أن مادته متغيرة متبدلة بحيث لا يبقى الكتاب هو هو لحظة

واحدة، ومعنى ذلك أن ليس له وجود ثابت، والتقاء هذين الوجهين يكونان الصيرورة التي هي أساس الكون.

وليس الوجود واللاوجود هما الضدين الوحيدين اللذين يلتقيان وينطبقان، بل إن في الكون لآلاً من النقائص المتطابقة المتناسقة، وإن شئت فقل ليس في الكون إلا أضداد ونقائص تنسجم في وحدة متناغمة لا نبو فيها ولا شذوذ، وحتى لو تنازعت النقائص، فليس تنازعها الظاهر في الحقيقة إلا أساس حياتها، وإن يوماً ينمحي فيه ما بين الأشياء من نزاع واختلاف لهو اليوم الذي تنتهي فيه الحياة ويسود الموت؛ لهذا لم يوافق هرقليطس «هومر» في دعائه بأن تزول أسباب التخاصم بين الآلهة والبشر، ويقول إنه لو استجيب هذا الدعاء لانمحي الكون وآل إلى الفناء.

تلك آراء هرقليطس فيما وراء الطبيعة، وله مذهب في نشأة الطبيعة يجدر بنا أن نذكره في شيء من الإيجاز: فهو يزعم أن النار أصل الكون، وهذا الكون موجود منذ الأزل، لم يخلقه إله ولا بشر، إنما نشأ بذاته، فقد كان وهو لا يزال الآن ولن يزال إلى الأبد ناراً حية خالدة، فكل شيء يخرج من النار وإلى النار يعود، فمهما تنوعت الكائنات فقد صدرت عن أصل واحد هو النار، ولها مرجع واحد هو النار، وإن شئت فقل إن النار الأبدية تستطيع أن تستبدل نفسها بأي شيء، كما يستطيع استبدال أي شيء بالنار، وكما يمكنك أن تحول الذهب إلى سلع، وأن ترد السلع إلى ذهب، فكذلك ما يقع تحت حسك من أشياء هو في الواقع صور مختلفة لمادة واحدة هي النار، ولعلك تلاحظ في غير عناء العلاقة القوية بين مذهبيه في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة، فالأول وليد الثاني؛ لأن هرقليطس حين التمس مادة ثلاث ما ارتأه في صيرورة الأشياء وتغيرها المستمر لم يجد عنصرًا أكثر من النار حركة وسرعة تحول، فهي لا تثبت على حال واحدة لحظة واحدة، وهي تستطيع أن تبتلع الأشياء جميعاً ثم تحولها إلى دخان متصاعد، وهو يزعم أن الكون قد نشأ في أول الأمر بأن تحولت النار الأولى إلى هواء، والهواء إلى ماء، والماء إلى يابس، وهذا ما يسميه بالطريق إلى أسفل، ويقابله الطريق إلى أعلى وهو تحول اليابس إلى ماء، والماء إلى هواء، والهواء إلى نار مرة ثانية.

وليست هذه الحياة التي تدب في الأحياء، وهذا النشاط العقلي الذي يميز الإنسان إلا قبساً من تلك النار، فكلما كثرت النار في جسم ازدادت حيويته واشتد نشاطه، وكلما أظلم الشيء — أي قلَّ ما فيه من نار — كان أقرب إلى الموت وأدخل في عالم اللاوجود، وإذا كانت هذه النفس الإنسانية التي تحملها بين جنبيك شعلة من تلك النار الأبدية فهي

بحاجة إلى وقود يغذيها، وهي تحصل على غذائها هذا من طريقين: الحواس والتنفس، فهما ينقلان إليها من الحياة الخارجية صورًا من ناحية وهواءً — أي نارًا — من ناحية أخرى، يعوضانها ما عساها أن تفقده، فليست النفس الإنسانية منفصلة مستقلة عن الحياة العامة الكونية التي تغمر الوجود وتتغلغل في أجزائه وأنحائه، بل هي جزء منها مرتبط بها، وإذا ما انقطعت بينهما أسباب الاتصال فقدت النفس حيويتها وأدركها الموت. وبين الحياة والموت مرحلة متوسطة: هي النوم، حيث تُعطلُّ الحواس، وهي أحد الطريقين اللذين يصلان النفس بالحياة الخارجية، ويبقى طريق واحد هو التنفس، وهو يفرق كالمدرسة الإيلية بين الحواس والعقل، وينكر أن تكون الحواس سبيلًا إلى المعرفة الحقة، إنما هي أداة يستعين بها العقل على التماس الحقيقة الخالدة، وهذه الحقيقة لن تكون يومًا فيما تنقله الحواس من صور، بل يدركها العقل وحده، وعنده أن الحواس الخادعة مسئولة عما أُلقي في روع الإنسان من خدعة الدوام الذي ينسبه للأشياء، أما الصيرورة — أي التغير الدائم — فحقيقة لا يقوى على إدراكها إلا العقل المجرد، وإدراك الصيرورة وقانونها هو رسالة الإنسان في الحياة، وهو السبيل إلى السعادة؛ لأن في تفهم قانونها شعورًا بالاطمئنان والرضى، وما دمت تعلم أن قوامها الجمع بين الأضداد فلا ينسجم الكون ويتناغم إلا إذا التقى الخير والشر، ولا يستقيم إلا مع السرور والألم والبقاء والفناء، وحسبك أن تعلم هذا لتتعم بالسعادة التي تريد.